

موسوعة الإمام الأعمش الكاملة  
للإمام ابن قتيبة الجوزية

# جامع الأَكَابِر

جمعه ووثق نصوصه وخرَّج أحاديثه

يسري السَّيِّدِ مُحَمَّد

الجزء الأول



جامع الكتاب

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع. - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠

ت: ٢٢٥٦٢٢٠ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٥٠٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٢٢٤٩٥١٣ / ٥٠٠

E-Mail : DAR ELWAF@HOTMAIL.COM



إهداء

إلى اللذين ربياني صغيرا

وبذلا النفس والنفيس

والديَّ الكرام

جزاهما الله كل خير



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، وأشهد أن سيدنا محمد عبد الله ورسوله ﷺ .

وبعد :

كما ترى - حفظك الله تعالى - هذا العمل الذى بين يديك ضمن المشروع الذى أخذ أكثر من خمسة عشر عاماً بين الفهرسة والترتيب والتحقيق، مع ما يعترى الإنسان عموماً من مشاغل الحياة وهمومها ، ويعترى المسلم خصوصاً همٌّ من نوع خاص ألا وهو همُّ الحال ، حاله مع ربه تعالى بين الطاعة والمعارف التى بها تنال محبة الله تعالى ، وبين العقبات التى تارة يفرسها الشيطان ، وتارة النفس ، وأخرى شياطين الإنس .

وحاله مع الناس بين المحب المعين ، وبين المبغض الصارف عن الحق ، وبين أصحاب معاول الظلم والهدم والإرجاف ، الصادِّين عن الله ورسوله .

وحاله مع نفسه تارة يفظمها عن الشر بالخير ، وتارة تقوده إلى هلكته ، نعوذ بالله .

والسعيد حقاً من كانت نفسه لوامة ، ثم ارتقى بها إلى المطمئنة ، ولا يخلص إلى هذا حتى يخلع عنها ثوب الأمر بالسوء ، وأحوال النفس من العجائب والغرائب بمكان .

ولله در إمامنا ابن القيم ، فهو بحق الطبيب النفسانى الذى شرح هذه النفس ، وبين داءها ودواءها بالجواب الكافى ، ولو تدبر المتدبر لوجد أن « مدارج السالكين » ما هو إلا درجات لهذه النفس .

فكان من الضرورى وضع منهاج ضابط لأحوال النفس ، حتى لا تتداوى بالعلل التى يلبسها الشيطان على بعضهم فيظنها دواء ، ويترك دواءها لجهله بنفعه .

ولا يخرج هذا المنهاج وهذا الضابط عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .

وهذا أمر يدعيه كل أحد ، لكن الفيصل عندنا ما ذكره الإمام أحمد رحمه الله تعالى : « أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي ﷺ » . نعم ، هذا الذى يجب أن يكون القصد والغاية .

والمتتبع بنظر الإنصاف ورجاحة العقل السليم ليرى كلام ابن القيم لا يخرج عن هذا

الأصل ، كما بينا هذا فى مقدمة « بدائع التفسير » ، و« جامع الفقه » وستزيده بياناً فى مقدمة « البدائع فى علوم القرآن » .

ومن هنا كان هذا البناء الذى نسال الله تعالى إتمامه وقبوله منا ، حيث رتبنا كلام الإمام ابن القيم وفق هذه الأبواب المعهودة لهذه العلوم ، والتي انتظمت أبوابها وفصولها وفوائدها ومسائلها فى الكتب التالية :

- ١- التوبة .
- ٢- العلم والعلماء .
- ٣- لطائف الكلم .
- ٤- الفتيا وآداب المفتين .
- ٥- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .
- ٦- الدعوة إلى الله عز وجل .
- ٧- الأذكار .
- ٨- اللباس والزينة .
- ٩- الرؤيا .
- ١٠- السلوك والزهد .
- ١١- النسب .
- ١٢- الخصائص .
- ١٣- الطب .
- ١٤- المفاضلات .
- ١٥- الأدب .
- ١٦- الفروق والمفارقات .

وستجد - أختى القارئ - وأنت تسبح فى هذا النهر الكريم درراً عليك بالتقاطها ، ووروداً عليك بضمها ، لعل الله تعالى ينفعك بها .

ولم نشأ صناعة ترجمة للإمام ابن القيم ، حيث كتبنا عنه فى « بدائع التفسير » و« جامع الفقه » ما فيه كفاية للمسترشد .

وقد سلكت فى تحقيق الكتاب نفس المنهج السابق ذكره فى مقدمة كتابى « بدائع التفسير » حيث اعتمدت فى التصحيح والتضعيف على كلام أئمة هذا الشأن ، وبالنسبة للسنن الأربعة ( أبى داود - الترمذى - النسائى - ابن ماجه ) فقد اعتمدت تصحيح أو تضعيف شيخنا العلامة الألبانى ، فما كان منها ضعيفاً أشرت إليه ، وإن سكت فهو من الصحيح أو الحسن ، مع ترك الاستطالة والتمادى والتخريج الذى لا حاجة فيه للقارئ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه

الهرم فى جمادى الأولى ١٤٢٣هـ

يسرى السيد محمد الكولى

يوليو ٢٠٠٢م

# كتاب التوبة



## فصل

## في حاجة العبد إلى التوبة

ومنزلة « التوبة » أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات . وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به ، واستصحبه معه ونزل به . فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها في النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣١) [النور] وهذه الآية في سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم . ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة « لعل » المشعرة بالترجي ، إيذانا بأنكم إذا تبتتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون . جعلنا الله منهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١١) [الحجرات] قسم العباد إلى تائب وظالم ، وما ثم قسم ثالث البتة . وأوقع اسم « الظالم » على من لم يتب ، ولا أظلم منه ؛ لجهله بربه وبحقه وبعبئ نفسه وآفات أعماله . وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « يا أيها الناس ، توبوا إلى الله ، فوالله إنى لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » (١) ، وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم : « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور » مائة مرة (٢) ، وما صلى قط بعد إذ أنزلت عليه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلى آخرها ، إلا قال فيها : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » (٣) ، وضح عنه ﷺ أنه قال : « لن ينجى أحدا منكم عمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته منه وفضل » (٤) .

(١) مسلم (٢٧٠٢ / ٤٢) في الذكر والدعاء والاستغفار والتوبة ، باب : استجاب الاستغفار والاستكثار منه ، وأحمد ٤ / ٢٦١ ، ٥ / ٤١١ بلفظ : « مائة مرة » .

وفي البخارى (٦٣٠٧) في الدعوات ، باب : استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ، بدون لفظ : « يا أيها الناس » .

(٢) الترمذى (٣٤٣٤) في الدعوات ، باب : ما يقول إذا قام من المجلس ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٣) البخارى (٤٩٦٧) في التفسير ، باب : سورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، ومسلم (٤٨٤ / ٢١٩) في الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود ، والنسائى (١١٢٢ ، ١١٢٣) فى التطبيق ، باب (٦٤) ، وأحمد ٤٣ / ٦ ، ٤٩ ، ١٠٠ ، ١٩٠ .

(٤) البخارى (٦٤٦٣) فى الرقاق ، باب : القصد والمداومة على العمل بدون قوله : « وفضل » ، ومسلم (٢٨١٦) /

(٧١) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله . . . إلخ ، وأحمد ٢ / ٤٨٢ ، ٤٨٨ .

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية ، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها (١) .

## فصل في حقيقة التوبة

إن حقيقة « التوبة » الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يجب ، وترك ما يكره . فهي رجوع من مكروه إلى محبوب . فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها ، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر ؛ ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها ، فقال ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور] ، فكل تائب مفلح ، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وقال تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات] وتارك المأمور ظالم ، كما أن فاعل المحظور ظالم ، وزوال اسم « الظلم » عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين ، فالتائب قسمان : تائب وظالم ، ليس إلا ، فالتائبون هم : ﴿ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ١١٢] فحفظ حدود الله جزء التوبة ، والتوبة هي مجموع هذه الأمور . وإنما سمي تائبا : لرجوعه إلى أمر الله من نهيه ، وإلى طاعته من معصيته ، كما تقدم .

فإذا : « التوبة » هي حقيقة دين الإسلام ، والدين كله داخل في مسمى « التوبة » وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه .

فإذا : « التوبة » هي الرجوع مما يكره الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا ، ويدخل في مسماها الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وتتناول جميع المقامات ؛ ولهذا كانت غاية كل مؤمن ، وبداية الأمر وخاتمته - كما تقدم - وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق . والأمر والتوحيد جزء منها ، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها (٢) .

(١) مدارج السالكين ( ١ / ١٧٨ ، ١٧٩ ) .

(٢) مدارج السالكين ( ١ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ ) .

## فصل

## فى اشتمال الفاتحة على بيان التوبة النصوح

ولما كانت « التوبة » هى رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين ، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم . ولا تحصل هدايته إلا بإعانتة وتوحيده ، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام ، وتضمنتها أبلغ تضمن . فمن أعطى الفاتحة حقها - علما وشهودا وحالا ومعرفة - علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح ، فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ، ولا مع الإصرار عليها . فإن الأول : جهل ينافى معرفة الهدى ، والثانى : غى ينافى قصده وإرادته . فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب ، والاعتراف به ، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولا وآخرا .

قال فى المنازل (١) : « وهى أن تنظر فى الذنب إلى ثلاثة أشياء : إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه ، وفرحك عند الظفر به ، وعودك على الإصرار عن تداركه ، مع تيقنك نظر الحق إليه » .

يحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة : انخلاعه عن اعتصامه بالله ؛ فإنه لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ [ آل عمران ] ، فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبدا . قال الله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾ [ الحج ] أى متى اعتصمتم به تولاكم ، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان ، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد ، وعداوتهما أضر من عدواة العدو الخارج . فالنصر على هذا العدو أهم ، والعبد إليه أحوج ، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله .

ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة الله له ، وأنتك إنما ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من توبة عصمته لك . فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده ، واشتدت عليه مفارقتة ، وعلم أن الهلك كل الهلك بعده - وهو حقيقة الخذلان - فما خلى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك ، وخلى بينك وبين نفسك ، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سيلا . فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان : أن يكلك الله إلى نفسك ، ويخلى بينك وبينها . والتوفيق : ألا يكلك الله إلى نفسك .

وله - سبحانه - فى هذه التخلية - بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته - حكم وأسرار .

وعلى الاحتمالين فترجع « التوبة » إلى اعتصامك به وعصمته لك .  
قوله : « وفرحك عند الظفر به » .

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها ، والجهل بقدر من عصاه ، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها ، وفرحه بها غطى عليه ذلك كله . وفرحه بها أشد ضررا عليه من موافقتها . والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا ، ولا يكمل بها فرحه ، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به . ومتى خلى قلبه من هذا الحزن ، واشتدت غبطته وسروره ، فليتهم إيمانه ، وليبك على موت قلبه ؛ فإنه لو كان حيا لأحزنه ارتكابه للذنب ، وغاظه وصعب عليه ، ولا يحس القلب بذلك ، فحيث لم يحس به فما لجرح يميت إيلام .

وهذه النكتة فى الذنب قل من يهتدى إليها أو ينتبه لها . وهى موضع مخوف جدا ، مترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة ، وندم على مافاتة من الله بمخالفة أمره ، وتشمير للجد فى استدراكه .  
قوله : « وقعودك على الإصرار عن تداركه » .

الإصرار : هو الاستقرار على المخالفة ، والعزم على المعاودة ، وذلك ذنب آخر ، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير . وهذا من عقوبة الذنب : أنه يوجب ذنبا أكبر منه ، ثم الثانى كذلك ، ثم الثالث كذلك ، حتى يستحكم الهلاك .

فالإصرار على المعصية معصية أخرى ، والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها ، وطمأنينة إليها ، وذلك علامة الهلاك .

وأشد من هذا كله : المجاهرة بالذنب ، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه ، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم ، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فكفر ، وانسلاخ من الإسلام بالكلية ، فهو دائر بين الأمرين : بين قلة الحياء ، ومجاهرة نظر الله إليه ، وبين الكفر والانسلاخ من الدين . فلذلك يشترط فى صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظرا - ولا يزال - إليه مطلعا عليه ، يراه جهرة عند موافعة الذنب ؛ لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم ، إلا أن يكون كافرا بنظر الله إليه جاحدا له . فتوبته دخوله فى الإسلام ، وإقراره بصفات الرب جل جلاله .

## فصل فى شرائط التوبة

قال (١) : « وشرائط التوبة ثلاثة : الندم ، والإقلاع ، والاعتذار » .

فحقيقة التوبة : هى الندم على ما سلف منه فى الماضى ، والإقلاع عنه فى الحال ، والعزم على ألا يعاوده فى المستقبل .

والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة ، فإنه فى ذلك الوقت يندم ، ويقطع ، ويعزم . فحيثئذ يرجع إلى العبودية التى خلق لها ، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة .

ولما كان متوقفا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .

فأما الندم : فإنه لا تتحقق التوبة إلا به ؛ إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به ، وإصراره عليه . وفى المسند : « الندم توبة » (٢) .

وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

وأما الاعتذار : ففيه إشكال ؛ فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار ، فإن الاعتذار محاجة عن الجناية ، وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف . وفى ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عتب عليه فى شىء :

وما قابلت عتبتك باعتذار      ولكنى أقول كما تقول

وأطرق باب عفوك بانكسار      ويحكم بيننا الخلقُ الجميل

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره ، وأزال عتبه عليه .

فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون فى قلبه ولسانه : اللهم لا براءة لى من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لى فأنتصر ، ولكنى مذنب مستغفر . اللهم لا عذر لى ، وإنما هو محض حقد ، ومحض جنائيتى ، فإن عفوت وإلا فالحق لك .

والذى ظهر لى من كلام صاحب المنازل : أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة ، وغلبة العدو ، وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقدك ، ولا جهلا به ، ولا إنكارا لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك . وإنما كان من غلبة الهوى ،

(١) لى صاحب المنازل .

(٢) أحمد ١ / ٣٧٦ ، ٤٢٣ ، ٤٣٣ ، وقال الشيخ أحمد شاکر (٣٥٦٨) : « إسناده صحيح » .

وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعا في مغفرتك واتكالا على عفوك ، وحسن ظن بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعا في سعة حلمك ورحمتك ، وغرني بك الغرور ، والنفس الأمارة بالسوء ، وسترك المرخى على ، وأعاتنى جهلى ، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك ، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك . ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار ، والاعتراف بالعجز ، والإقرار بالعبودية .

فهذا من تمام التوبة ، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل ، والله يحب من عبده أن يتملق له .

وفي الحديث: « تملقوا لله » (١) ، وفي الصحيح : « لا أحد أحب إليه العذر من الله » (٢) ، وإن كان معنى ذلك الإعذار . كما قال في آخر الحديث : « من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » . وقال تعالى : ﴿ فَأَلْمَلَقِيَّاتِ ذِكْرًا ۝ عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ۝ ﴾ [المرسلات] ، فإنه من تمام عدله وإحسانه أن أعذر إلى عباده . وألا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه . فهو أيضا يحب من عبده أن يعتذر إليه ، ويتصل إليه من ذنبه ، وفي الحديث : « من اعتذر إلى الله قبل الله عذره » (٣) فهذا هو الاعتذار المحمود النافع .

وأما الاعتذار بالقدر : فهو مخاصمة الله ، واحتجاج من العبد على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار ، وهذا فعل خصماء الله . كما قال بعض شيوخهم في قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٤] قال : أتدرون ما المراد بهذه الآية ؟ قالوا : ما المراد بها ؟ قال : إقامة أعذار الخليفة .

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه . وإنما المراد بها : التزهيد في هذا الفانى الذاهب ، والترغيب فى الباقي الدائم ، والإزرء بمن آثر هذا المزين واتبعه ، بمنزلة الصبى الذى يزين له ما يلعب به ، فيهش إليه ويتحرك له ، مع أنه لم يذكر فاعل التزين ، فلم يقل « زينا للناس » .

والله تعالى يضيف تزين الدنيا والمعاصى إلى الشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام] ، وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُؤُهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٣٧] ، وفي الحديث : « بعثت هاديا وداعيا ، وليس إلى من الهداية

(١) لم أقف عليه .

(٢) البخارى (٧٤١٦) فى التوحيد ، باب : قول النبى ﷺ : « ولا شخص أغير من الله » ، ومسلم (٢٧٦٠ / ٣٥) التوبة ، باب : غيرة الله تعالى . . . الخ ، و (١٧ / ١٤٩٩) فى اللعان ، وأحمد ٤ / ٢٤٨ .

(٣) أبو يعلى (٤٣٣٨) ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٣٠١ : « فيه الربيع بن سليمان الأزدى ، وهو ضعيف » .

شئ ، وبعث إبليس مغويا ومزينا . وليس إليه من الضلالة شئ » (١) ، ولا يناقض هذا قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾ [ الانعام : ١٠٨ ] فإن إضافة التزيين إليه قضاء وقدرا ، وإلى الشيطان تسببا ، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زينه الشيطان لهم . فمن عقوبة السيئة السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها .

والمقصود : أن الاحتجاج بالقدر مناف للتوبة . وليس هو من الاعتذار فى شئ . وفى بعض الآثار : « إن العبد إذا أذنب . فقال : يارب ، هذا قضاؤك ، وأنت قادر على ، وأنت حكمت على ، وأنت كتب على . يقول الله عز وجل : وأنت عملت ، وأنت كسبت ، وأنت أردت واجتهدت ، وأنا أعاقبك عليه . وإذا قال : يارب ، أنا ظلمت ، وأنا أخطأت ، وأنا اعتديت ، وأنا فعلت ، يقول الله عز وجل : وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت ، وأنا أغفر لك . وإذا عمل حسنة فقال : يارب أنا عملتها ، وأنا تصدقت ، وأنا صليت ، وأنا أطعمت . يقول الله عز وجل : وأنا أعتك ، وأنا وفقتك . وإذا قال : يارب ، أنت أعنتنى ووفقتنى ، وأنت مننت على . يقول الله : وأنت عملتها . وأنت أردتها ، وأنت كسبتها » .

فلاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافى الاعتراف ، فذلك مناف للتوبة ، واعتذار يقرر الاعتراف ، فذلك من تمام التوبة .

## فصل

### فى حقائق التوبة

قال صاحب المنازل : « وحقائق التوبة ثلاثة أشياء: تعظيم الجناية ، واتهام التوبة ، وطلب أعذار الخليفة » .

يريد بالحقائق : ما يتحقق به الشئ ، وتبين به صحته وثبوته ، كما قال النبى ﷺ لحارثة : « إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » (٢) .

فأما تعظيم الجناية : فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها ، وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها ، فإن من استهان بإضاعة فلس - مثلا - لم يندم على إضاعته ، فإذا علم أنه

(١) الكامل فى ضعفاء الرجال ٣ / ٣٩ ، والضعفاء الكبير ٢ / ٩ ، والموضوعات لابن الجوزى ١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، وتنزيه الشريعة ١ / ٣١٥ ، بلفظ : « بعثت داعيا ومبليا » .

(٢) الطبرانى فى الكبير ٣ / ٢٦٦ (٣٣٦٧) ، وكشف الأستار ١ / ٢٦ (٣٢) ، قال البزار : « تفرد به يوسف وهو لين الحديث » ، وقال الهيثمى فى المجمع ١ / ٦٢ : « وفيه ابن لهيعة ، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

دينار اشتد ندمه ، وعظمت إضاعته عنده .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء : تعظيم الأمر ، وتعظيم الأمر ، والتصديق بالجزاء .

## فصل

وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه ، لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه ، الذى ينبغى له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده فى صحتها ، وأنها توبة علة وهو لا يشعر بها ، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس والمحافظين على حاجاتهم ومنزلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله ، فتاب للحال لا خوفا من ذى الجلال ، أو أنه تاب طلبا للراحة من الكد فى تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التى تقدر فى كون التوبة خوفا من الله ، وتعظيما له ولحرماته ، وإجلالا له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده ، وعن البعد والطرده عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه فى الدار الآخرة . فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون .

ومن اتهام التوبة أيضا : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقعه ، وربما تنفس ، وربما هاج هائجه .

ومن اتهام التوبة : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أعطى منشورا بالأمان ، فهذا من علامات التهمة .

ومن علاماتها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وألا يستحدث بعد التوبة أعمالا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة .

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات :

منها : أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبلها .

ومنها : أنه لا يزال الخوف مصاحبا له لا يأمن مكر الله طرفة عين ؛ فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [ فصلت ] فهناك يزول الخوف .

ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندما وخوفا . وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها ،

وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [ التوبة : ١١٠ ] قال : تقطعها بالتوبة . ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وهذا هو تقطعه ، وهذا حقيقة التوبة ؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه ، وخوفا من سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفا ، تقطع فى الآخرة إذا حقت الحقائق ، وعان ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين . فلا بد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضا : كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ، ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد . وإنما هى أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة ، قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقت بين يدى ربه طريقا ذليلا خاشعا ، كحال عبد جان أبى من سيده ، فأخذ فأحضر بين يديه ، ولم يجد من ينجيهِ من سطوته ، ولم يجد منه بدا ولا عنه غناء ، ولا منه مهريا ، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه . وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جنائياته ، هذا مع حبه لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده ، وذله وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها للعبد . وما أجدى عائدتها عليه ! وما أعظم جبره بها . وما أقربه بها من سيده ! فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة ، والخضوع والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين يديه ، والاستسلام له . فله ما أحلى قوله فى هذه الحال : « أسألك بعزك وذلى إلا رحمتى ، أسألك بقوتك وضعفى ، وبغناك عنى وفقرى إليك ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سوى كثير ، وليس لى سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبتة ، ورجم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلل لك قلبه » .

يامن ألوذ به فيما أوّمله      ومن أعوذ به مما أحاذره  
لا يجبرُّ الناس عظما أنت كاسره      ولا يهيضون عظما أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة . فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها ، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة . وما أسهلها باللسان والدعوى ! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأكثر الناس من المتزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات : فى كبائر مثلها أو أعظم

منها أو دونها . ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها . فعندهم - من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم ، وصوله طاعاتهم ، ومنهم على الخلق بلسان الحال ، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم ، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم ، وتوابع ذلك - ما هو أبغض إلى الله ، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك . فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ، ليكسر بها نفسه ، ويعرفه قدره ، ويذله بها ، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه . فهي رحمة في حقه ، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح ، وإقبال بقلوبهم إليه ، فهو رحمة في حقهم ، وإلا فكلاهما على خطر .

## فصل

وأما طلب أعدار الخليفة : فهذا له وجهان : وجه محمود ، ووجه مذموم حرام . فالذموم : أن تطلب أعدارهم ؛ نظرا إلى الحكم القدرى ، وجريانه عليهم ، شاؤوا أم أبوا ، فتعذرهم بالقدر . وهذا القدر ينتهى إليه كثير من السالكين ، الناظرين إلى القدر ، الفانين فى شهوده . وهو درب خطر جدا ، قليل المنفعة ، لا ينجى وحده . وأظن هذا مراد صاحب المنازل ؛ لأنه قال بعد ذلك :

« مشاهدة العبد الحكم لم يدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة ؛ لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحكم » .

وهذا الشهود شهود ناقص مذموم ، إن طرده صاحبه ، فعذر أعداء الله ، وأهل مخالفته ومخالفة رسله ، وطلب أعدارهم : كان مضادا لله فى أمره ، عاذرا من لم يعذره الله ، طالبا عذر من لأمه الله وأمر بلومه . وليست هذه موافقة لله ، بل موافقة لوم هذا ، واعتقاد أنه لا عذر له عند الله ، ولا فى نفس الأمر . فالله عز وجل قد أعذر إليه ، وأزال عذره بالكلية ، ولو كان معذورا فى نفس الأمر عند الله لما عاقبه البتة ؛ فإن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر ، فلا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب ، إزالة لأعدار خلقه ؛ لئلا يكون لهم عليه حجة .

ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححه مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه . فله الحجة البالغة ، ومن له عذر من خلقه - كالطفل الذى لا يميز ، والمعته ، ومن لم تبلغه الدعوة ، والأصم الأعمى الذى لا يبصر ولا يسمع - فإن الله لا يعذب هؤلاء بلا